تأدية رسالته ا لتي تماثل رسالة رجل الدين، فيتخيل نفسه «بافنوس» بطل قصة الكاتب الفرنسي «أناتول فرانس» الذي كان مترهباً في صومعة بالصحراء، وسمع عن امرأة تدعى «تاييس» تغوي الناس وتضلهم، وحاول أن يرشدها، ويهديها إلى الفضيلة، فقطع الصحراء حافي القدمين حتى قابلها، ولكنه بدلاً من أن يعلمها مبادئه علمته مبادئها، ووقع صريع حبها!

وقابلت الفتاة الراهب مرات أخرى حتى صار لا يطيق غيابها، وأخذ يلبسها تلك الثياب الملكية، التي ارتدتها «إيمادوران» من قبل، فحولها إلى امرأة مثلى تضاهي أولئك النساء القليلات اللواتي تركن أثراً لا يمحى في ذاكرة الإنسانية؛ فهو يراها دائماً في صورة الزوجة المثلى، ويعيرها ملامحها وقسماتها، إنها أصبحت تربا لـ«ماري آن» زوجة «دزرائيلي» التي كانت تكتم مرضها المزمن عن زوجها مدة طويلة، حتى لا تشغله عن القيام بتأدية رسالته السياسية، بل إنها تغدو في نظره مثل «خديجة» زوجة «النبي» (ص) التي كانت تشد أزره في أشد الأزمات، وتسهر على راحته الليالي الطوال، وتضمد جروحه، وتبذل أموالها في سبيل رسالته، ومثل «إيزيس» التي قضت أغلب حياتها تكافح ضد «سيت» الذي غدر بزوجها، وتضرب في مناكب الأرض باحثة عن هذا الزوج، وحين تعلم آخر الأمر بموته وتقطيعه إرباً إرباً، ونثر رفاته في طول البلاد وعرضها، تطوف باحثة عن بقاياه في كل مكان. وتظل تبحث دون كلل أو ملل أعواماً طويلة، وكلما عثرت على قطعة أو عضو من أعضاء زوجها العزيز تدفنه وتبني عليه نصباً[51].

وقضى الراهب الليالي الطوال ساهراً يناجي ا لفتاة على الورق، فكتب رسائل بليغة ترسمها لنا في صورة لم تعد من صور البشر، وإنما هي صورة شيء معنوي رفيع، أو أسطورة خيالية أكثر مما هي كائن موجود[54].

وتتوالى أحداث الرواية فإذا بالحقيقة المرة تتكشف لراهب الفكر أيضاً كما تكشفت للفتى «محسن» من قبل، وإذا بتلك الفتاة التي عدها من أنداد «إيزيس»، و«خديجة»، و«ماري آن» تظهر على حقيقتها فتاة مبتذلة، داعرة،